«٧» بشدة التلاؤم للظروف الجديدة المحيطة بالقوم وخاصة ما كان محكا للافكار

نماذج من الخطب

« ا » فى صدر الاسلام

١ — من خطب النبى صلى الله عليه وسلم

« ا » أول خطبة بالمدينة قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد : أيها الناس فقدموا لانفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها ألى سبعمائة ضعف والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته

«ب» وخطب أيضا فقال .

أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلي معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فان العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لايدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لايدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار .

«ج» وخطب فى حجة الوداع فكان مما قال :ـ

أيها الناس . إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بأذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن (١) وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وأنما النساء عندكم عوان (٢) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ،واستوصوا بهن خيرا ، الاهل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : انما المؤمنون أخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه الا عن طيب نفس منه ، الاهل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله . الاهل بلغت ؟ اللهم اشهد

أيها الناس : إن ربكم واحد ،وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ،وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى . الاهل بلغت ؟ اللهم اشهد قالوا نعم قال فليبلغ الشاهد الغائب .

(د) : وخطب بتبوك فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

أما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرا كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر

---

(١) العضل الحبس والتضييق (٢) عوان جمع عانية : من عنا اذا خضع وذل

الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الانبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال مانفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وماقل وكفى خير مما كثر وألهى .

(٢) ـ (١) وخطب أبو بكر رضى الله عنه يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

بأبى أنت وأمى ! طبت حيا ، وطبت ميتا ! وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون (١) ، فأما مالا نستطيع نفيه عنا : فكمد وإدناف (٢) يتخالفان ولا يبرحان اللهم فأبلغه السلام

(ب) وخطب أبو بكر رضى الله عنه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(*) أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على

---

(١) جمع شأن مجرى الدمع (٢) سقم (*) هذه رواية العقد الفريد لابن عبدربه ومن تابعه ولكن أبا العباس المبرد فى الكامل اسندعن العتبى ماذكرناه لك فى هامش الأثر الرابع للقرآن الى عمر بن الخطاب .

حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم

(٣) من خطب يوم « السقيفة »

(ج) وخطب أبو بكر يوم السقيفة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس : نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، اخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم ما منحهم الله من فضله ...

(٤) ثم قام الحباب بن المنذر فقال :

يامعشر الأنصار : أملكوا عليكم أمركم ، فان الناس فى فيئكم ، وفى ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم

رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم ؛ فان أبى هؤلاء إلا ماسمعتم فمنا أمير ومنهم أمير.

(٥) (ا) : فقال عمر بن الخطاب :

هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن (١) والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ؛ ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ؛ ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وأمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ألا مدل بباطل أو متجانف (٢) لإثم أو متورط فى هلكة.

(ب) وخطب عمر أيضا حين ولى الخلافة فقال :

أنى قائل كلمات فأمنوا عليهن : إنما مثل العرب جمل أنف (٣) اتبع قائده . فلينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق ؟!

(ج) : وخطب أيضا فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

أيها الناس : إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غني ، وأنكم تجمعون مالا تأكلون ، وتأملون مالا تدركون ، وأنتم مؤجلون فى دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحى فمن أسر شيئا أخذ بسريرته ، ومن أعلن شيئا أخذ بعلانيته ، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه من أظهر لنا قبيحا وزعم أن سريرته

---

(١) حبل (٢) متجانف : مائل (٣) اشتكى أنفه من البرة والبرة (الحلقة فى لحمة أنف البعير)

حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق فأنفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

أيها الناس: أطيبوا مثواكم، وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم، ولا تلبسوا نساءكم القباطي (١) فإنه إن لم يشف فإنه يصف.

أيها الناس: إني لوددت أن أنجو كفافا لا لي ولا علي، وإني لأرجو إن عمرت فيكم يسيرا أو كثيرا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله، وأن لا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله وإن لم يعمل إليه نفسه، ولم ينصب إليه يده، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله، ولقليل في رفق خير من كثير في عنف، والقتل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر، والشهيد من احتسب نفسه.

(د) ومما قاله في بعض خطبه.

ألا إن من أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا، وأحببناه عليه، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه. اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة (٣) وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية.

---

(١) القباطي: جمع قبطية نسبة إلى قبط بالكسر على غير قياس وهي ثياب بيض رقاق من الكتان كانت تصنع بمصر.

(٢) اقدعوا (٣) نفس طلعة بضم الطاء وفتح اللام كثيرة التطلع إلى الشيء.

ان هذا الحق ثقيل مرىء (١) وإن الباطل خفيف وبىء (٢) وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا

(٦) (ا) وخطب عثمان رضى الله عنه حين بايعه أهل الشورى فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

إنكم فى دار قلعة (٣) وفى بقية اعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم : ألا وأن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فانه لايغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا واخوانها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا — والذى هو خير — فقال عز وجل « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »

(ب) وخطب حين نقم عليه الناس فقال :

إن لكل شىء آفة ، وان لكل نعمة عاهة ، وان آفة هذا الدين قوم عيابون ظنانون ، يظهرون لكم ماتحبون ، ويسرون ماتكرهون ، يقولون لكم وتقولون ، طغام مثل النعام ، يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم اليهم

«١» حميد العاقبة «٢» وبىء وخيم العاقبة «٣» انقلاع لأهلها

النازح ، لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم عليّ ولكنه وقمكم وقمعكم ، وزجركم زجر النعامة المخزمة ، والله إني لأقرب ناصرا ، وأعز نفرا ، وأقمن أن قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر ! هل تفقدون من حقوقكم شيئا ؟ فمالى لا أفعل فى الحق ما أشاء ؟!! إذن فلم كنت إماما ؟!

(٧) ومن خطبة للسيدة عائشة رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها قالت : —

أبى وما أبيه !! أبى والله لا تعطوه(١) الأيدى ، ذاك طود منيف ، وفرع مديد ، هيهات ! كذبت الظنون ! أنجح إذ أكديتم (٢) وسبق إذ ونيتم سبق الجواد اذا استولى على الأمد ، فى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا ، يفك عانيها ، ويريش مملقها(٣) ويرأب شعبها ، ويلم شعثها حتى حليته القلوب(٤) ثم استشرى(٥) فى دين الله فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيه ما أمات المبطلون . وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيذ «٦» الجوانح ، شجى النشيج «٧» فانقضت اليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به «الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون» فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها ، وفوقت سهامها ،

---

(١) تعطوه تتناوله . «٢» أنجح إذ أكديتم : فاز اذ عثرتم (وأصل الكديه الصخرة التى تعترض الذى يحفر البئر (٣) يعين فقيرها (٤) حليته القلوب أعجبت به فتعلقته (٥) استشرى غضب (٦) الوقيذ الصريع (٧) الشجى : الحزين والنشيج صوت البكاء

وامتثلوه «١» غرضا فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه «٢» حتى اذا ضرب الدين بجرانه «٣» ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا، ومن كل فرقة ارسالا وأشتاتا، اختار الله لنبيه ما عنده. فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه، ومد طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، واضطرب حبل الاسلام، ومرج عهده، وماج أهله، وبغى الغوائل، وظنت رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزها «٤» ولات حين الذى يرجون.

وأنى والصديق بين أظهرهم! فقام حاسرا مشمرا، فجمع حاشيته، ورفع قطريه، فرد رسن الاسلام على غربه، ولم شعثه بطبه، وانتاش «٥» الدين فنعشه، فلما أراح الحق على أهله، وقرر الرءوس على كواهلها، وحقن الدماء فى أهبها: أتته منيته، فسد ثلمته بنظيره فى الرحمة وشقيقه فى السيرة والمعدلة. ذاك ابن الخطاب لله در أم حملت به ودرت عليه ..... فأرونى ماذا ترتأون؟ وأى يومى أبى تنقمون: أيوم إقامته إذ عدل فيكم، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟! أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم

(٨) وخطب خالد بن الوليد باليرموك فى جيشه فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه: —

---

(١) اتخذوه هدفا (٢) السيساء فقار الظهر والمراد مضى فى شدته كدأبه (٣) المراد: اتسع متوطد الاركان وأصل الجران مقدم عنق البعير (٤) أكثب قرب والنهز جمع نهزة: الفرصة والمراد ظن رجال أن قد دنت فرص أطماعهم (٥) انتاش الخ انتشل الدين من بين الفتن فرفعه.

ان هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فان هذا يوم له مابعده ، ولاتقاتلوا قوما على نظام وتعبية وعلى تساند وانتشار فأن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وان من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون انه الرأى

(٩) (ا) وخطب عبدالله بن الزبير حين اتاه نعى مصعب بن الزبير فقال بعد أن حمد الله وأثني عليه: انه أتانا خبر قتل المصعب فسررنا به ، واكتأبنا له ، فأما السرور فلما قدر له من الشهادة ، وحيز له من الثواب وأما الكآبة فلوعة يجدها الحميم عند فراق حميمه . وانا والله ما نموت حبجا [١] كميتة آل أبى العاصى ، انما نموت والله قتلا بالرماح ، وقعصا [٢] تحت ظلال السيوف ، فان يهلك المصعب فان فى آل الزبير منه خلفا

(ب) قدم عبدالله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح أفريقية ، فأخبره مشافهة وقص عليه كيف كانت الوقعة ، فأعجب عثمان ما سمع منه ، فقال له : أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال ياأمير المؤمنين إنى أهيب لك منى لهم ، فقام عثمان فى الناس خطيبا ، فحمد الله واثني عليه ، ثم قال: أيها الناس إن الله قد فتح عليكم افريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ، وكان عبدالله بن الزبير الى جانب المنبر فقام وخطب الناس ، وكان أول من خطب الى جانب المنبر ، فقال :

الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذى

«١» الحبج انتفاخ البطن «٢» القعص القتل

لا تبجد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله ، انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم فاختاره بعلمه ، وأتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته ؛ فآمنوا به وعزروه ووقروه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيع الرابح ، وبقى منهم من بقى ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم.

أيها الناس : رحمكم الله انا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع وال حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ؛ كان يسير بنا الابردين «١» . ويخفض بنا فى الظهائر ، ويتخذ الليل جملا ، ويعجل الرحلة من المنزل الجدب ، ويطيل اللبث فى المنزل الخصب فلم نزل على أحسن حال نعرفها من ربنا ، حتى انتهينا الى افريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الابل ، وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياما ، نجم كراعنا (٢) ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم الى الاسلام والدخول فيه ، فابعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأناهم ، وتختلف رسلنا اليهم ، فلما يئس منهم قام خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه اذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا الى عدونا ، وقاتلناهم أشد القتال ؛ يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين

«١» الابردان. الغداة والعشى «٢» الكراع بضم الكاف. جماعة الخيل ؛ واجم الفرس ترك ركوبه

فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالامس فزحف بعضنا على بعض فافرغ الله علينا صبره ، وانزل علينا نصره ففتحناها من آخر النهار ، فاصبنا غنائم كثيرة وفيئا واسعا ، بلغ فيه الخمس خمسمائة الف فصفق (١) عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد قرت أعينهم ، واغناهم النفل ، وانا رسولهم الى أمير المؤمنين أبشره واياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك ، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل باعدائه من بأسه الذى لا يردعن القوم المجرمين

ثم سكت فنهض أبوه الزبير ، فقبل بين عينيه وقال : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، يا بنى مازلت تنطق بلسان أبى بكر حتى صمت

(١٠) خطبة أبى موسى الاشعرى فى فتنة الجمل .

أيها الناس : أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوى اليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف ، انا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا ، ان الفتنة اذا أقبلت شبهت ، واذا أدبرت بينت ، وان هذه الفتنة باقرة (٢) كداء البطن ، تجرى بها الشمال والجنوب والصبا والدبور ، فتسكن أحيانا فلا يدرى من أين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس شيموا (٣) سيوفكم ، وقصدوا (٤) رماحكم ، وارسلوا سهامكم ،

«١» صفق الباب . اغلقه «٢» الباقرة . الصادعة للالفة «٣» شام . سيفه استله وغمده . ضد «٤» التقصيد الكسر

واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم ، خلوا قريشا اذا أبوا الا الخروج من دار الهجرة ، وفراق أهل العلم بالامرة ، ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ، فان فعلت فلأنفسها سعت ، وان أبت فعلى أنفسها جنت سمنها تهريق فى أديمها ، استنصحونى ولا تستغشونى ، وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها .

(ب) فى العصر الأموى

(١) «ا» وخطب معاوية فى أهل الشام يحثهم على قتال أصحاب على ابن طالب فقال :

أيها الناس : أعيرونا جماجمكم وأنفسكم ، لاتقتلوا ولا تتخاذلوا ، فان اليوم يوم أخطار ، ويوم حقيقة وحفاظ ، إنكم لعلي حق ، وبأيديكم حجة انما تقاتلون من نكث البيعة ، وسفك الدم الحرام ، فليس له من السماء عاذر . قدموا أصحاب السلاح المستلئمة . وأخروا الحاسر . واحملوا بأجمعكم فقد بلغ الحق مقطعه . وانما هو ظالم ومظلوم .

(ب) وخطب آخر خطبة فى حياته فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ... وقبض على لحيته

أيها الناس : إنى من زرع قد استحصد . وقد طالت عليكم أمرتى حتى مللتكم ومللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقى ، وانه لايأتيكم بعدى الا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى الا من هو خير منى ، وانه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم انى أحببت لقاءك فاحبب لقائى

ثم نزل فما صعد المنبر بعد حتى مات

٢ ـ (ا) وخطب عتبة أخو معاوية بن أبي سفيان وكان من أخطب بني أمية ، وكان الناس حديثي عهد بالفتنة ، فاستفتح ثم قال :

أيها الناس : إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر، وعلى المسىء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فانها تنقطع دوننا، ورب متمن حتفه في أمنيته ، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم ، وإياكم «ولو» فقد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، فاسألوا الله أن يعين كلا على كل . فنعق به أعرابي من مؤخر المسجد فقال : أيها الخليفة ؟ فقال لست به ولم تبعد . قال فيا أخاه ، قال قد سمعت فقل . فقال :

والله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير لكم من أن تسيئوا وقد أحسنا ؛ فان كان الاحسان لكم فما أحقكم باستتمامه ، وإن كان لنا فما أحقكم بمكافاتنا .

(ب) وخطب عتبة الناس بمصر حينما ولاه معاوية إياها بعد عمرو ابن العاص فقال إني إنما قامت أظفاري عنكم ليلين مسى لكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقيا عليكم فأما اذ أبيتم الا الطعن على السلطان والتنقص للسلف فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فان حسمت أدواءكم وإلا فان السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ، ومن موعظة مناصمت عنها آذانكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذ جدتم بالمعصية ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى ثم نزل ،

(٣) ومن خطبة لأم الخير [١] بنت الحريش يوم قتل عمار بن ياسر «أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم فى عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة، فالى أين تريدون رحمكم الله! أفرارا عن أمير المؤمنين، أم فرارا من الزحف، أم رغبة عن الاسلام، أم ارتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» — ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول: — اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يارب أزمة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، والف القلوب على الهدى هاموا رحمكم الله الى الامام العادل والوصى الوفى، والصديق الاكبر. إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون الخ

(٤) وخطب يزيد بن عاصم المحاربي أحد رؤوس الخوارج، وقد

---

(١) من شهيرات نساء العرب وهى بنت الحريش بن سراقه البارقى وكانت من انصار على رضى الله عنه. ولما تم الامر لمعاوية استقدمها وقال لها أخبرينا كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟ فقالت لم اكن زورته قبل ولا رويته بعد. فقال لجلسائه ايكم يحفظ كلامها فقال رجل انا قال هات قال: كأنى بها بين بردين كسيفى النسج على جمل ارمك (فى لون الرماد) وقد أحيط حولها وبيدها سوط منتشر الضفيرة وهى كالفحل يهدر فى شقشقته يقول ايها الناس الخ

سمعهم أمير المؤمنين على يقولون فى جوانب المسجد : لا حكم إلا لله ، فقال على : الله أكبر ، كلمة حق يراد بها باطل ، إن سكتوا عممناهم ؛ وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم ، فوثب يزيد المحاربى فقال: «الحمد لله غير مودع ربنا ولا مستغنى عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية فى ديننا ، فان إعطاء الدنية فى الدين إدهان فى أمر الله عز وجل ، وذل راجع بأهله الى سخط الله ، ياعلى أبالقتل تخوفنا ؟ أما والله إنى لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفحات ، ثم لتعلمن أينا أولى بها صليا»

(٥) وخطب الزبير بن على اليربوعى الخارجى فقال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه

«إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ، وإن يصب منكم أمير المؤمنين — يعنى ابن الماحوز زعيمهم(١) — فما صار اليه خير مما خلف . وقد أصبتم منهم مسلم بن عبيس ، وربيعا الأجزم ؛ والحجاج بن باب ، وحارثة بن بدر ، وأشجيتم المهلب ، وقتلتم أخاه المعارك والله يقول لاخوانكم من المؤمنين «إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس» فيوم سلى (٢) كان لكم بلاء وتمحيصا ، ويوم سولاف (٣) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تغلبن على الشكر

---

(١) هو عبد الله بن الماحوز أحد زعماء الخوارج الأزارقة (٢) موضع كانت فيه موقعة بين المهلب بن أبى صفره والخوارج وكان النصر فيه للمهلب (٣) ويوم سولاف كان النصر فيه للخوارج

فى حينه والصبر فى وقته، وثقوا بأنكم المستخلفون فى الأرض والعاقبة للمتقين .

(٦) وخطب عمر بن عبدالعزيز فقال : بعد أن حمدالله وأثنى عليه :

«أيها الناس: إنما الدنيا أمل مخترم ، وأجل منتقص ، وبلاغ الى دار غيرها، وسير إلى موت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرءاً فكر فى أمره، ونصح لنفسه وراقب ربه ؛ واستقال ذنبه، ونور قلبه. أيها الناس قد علمتم أن أباكم قد أخرج من الجنة بذنب واحد، وأن ربكم وعد على التوبة فليكن أحدكم من ذنبه على وجل؛ ومن ربه على أمل»

وخطب يزيد بن الوليد — حين قتل الوليد بن يزيد — فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : —

«أما بعد : أيها الناس إنى ماخرجت أشراً ولا بطرا ، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة فى الملك ، وما بى إطراء نفسى، ولا تزكية عملى، وإني لظلوم لنفسى إن لم يرحمنى ربى ولكنى خرجت غضبا لله ودينه ، وداعيا إلى كتابه وسنة نبيه، حين درست معالم الهدى، وطفىء نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل الحرمة، والراكب البدعة ، والمغير السنة، فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لاتقلع على كثير من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم ، وأشفقت أن يدعو كثير من الناس الى ماهو عليه فيجيبه من أجابه منكم ، فاستخرت الله فى أمرى وسألته أن لايكلنى الى نفسى وهو ابن عمى فى نسبى، وكفئ فى حسبى؛ فأراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ولاية من الله ، وعزما بلاحول مناولاقوة ولكن بحول الله وقوته وولايته وعزته» الخ .

على بن أبى طالب

كرم الله وجهه

ليس فى شخصيات التاريخ الاسلامى شخصية تضارع شخصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب شهرة وذيوع صيت، فاسمه ملء الخافقين وتاريخه مسرح العقول وميدان البطولة .

فنحن إذ نترجم لهذه الشخصية الفذة لانحاول أن نستكمل آيات عظمتها من جميع نواحيها، وإنما نرسم صورة مصغرة لتلك العظمة التى صنعها الله نسيج وحدها، وفريدة بابها، ولاسيما فيما لم يكن لأحد حظ مثل حظها منه . ذلك هو مقام الفصاحة والبيان .

نسبه ومولده : هو أبو الحسن ، ربيب النبوة ، وزوج البتول ، وسيف الله المسلول ، أقضى العلماء ، وأعلم القضاة ، وأشجع شجعان العرب . وأفصح من كتب أو خطب ، مالك أزمة البلاغة والادب . رابع الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين « على بن ابى طالب » كرم الله وجهه .

أما أبوه فحسبك به من سيد قريش وشيخها ، ورئيس مكة وشريفها أبو طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى . كان من رجالات قريش الذين انتهت اليهم الرياسة والزعامة قبيل الاسلام . اشتهر ابو طالب بالتجارة ،

وكفل النبي ﷺ صغيرا . وحدب عليه ناشئا ورعاه شابا . ووقف دونه نبيا ورسولا يحميه ويدافع عنه . وهو يومئذ على دين قومه . وكان من خطباء العرب المعدودين . ومصاقعهم المشهورين .

وأما أمه فهي السيدة الجليلة فاطمة بنت أسد الهاشمية القرشية . أسلمت بعد عشرة اشخاص . فهي من السابقين الأولين . وكانت من أبر الناس بالنبي ﷺ ربته في حجرها . فكان يجلها ويكرمها ويدعوها (بأمي) وهي أول من بايعه من النساء ، ولما حضرتها الوفاة أوصت للنبي صلى الله عليه وسلم فقبل وصيتها وكفنها في قميصه وألحدها في قبرها بنفسه فقال له اصحابه : يارسول الله ! مارأيناك صنعت بأحد ماصنعت بها . فقال : إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر بي منها .

نشأته : في نحو الثلاثين من عمر النبي صلى الله عليه وسلم ولد علي من هذين الابوين الكريمين ، فكان جماع نبلهما وفضلهما ، ورث عنهما أحاسن أخلاقهما ، وأكارم صفاتهما ، فأخذ عن أبيه نبله وشرف نفسه ؛ وحزمه وعزته ، وشجاعته وفصاحته ، وأخذ عن أمه برها وعطفها ، وحبها للخير والاحسان ، ثم هيأ الله له الانتقال الى بيت النبي يربيه ويرعاه ويعلمه ويهذبه ، ويغرس في نفسه مكارم الاخلاق ، فقد روى أن سنة ماحلة أصابت قريشا فعركت أديمها ، وكان أبو طالب كثير العيال ، فقال النبي لعميه حمزة والعباس : ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل ؟ فأجاباه وذهبوا الى أبي طالب وسألوه أن يدفع اليهم بعض ولده ليكفوه أمرهم فقال أبو طالب : دعوا لي عقيلا وخذوا من شئتم ، وكان عقيل آثر

ولده عنده ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم عليا ، وهو أصغرهم وقال لهم . أخذت من اختاره الله لى عليكم.

عندئذ بدأت حياة فتى قريش فى اتجاه جديد ، يختلف كل الاختلاف عن حياة أمثاله من صبيان العرب وانداده من فتيانهم ، فانه انتقل من بيت كان للوثنية فيه صوت دوى ، وأثر قوى ، الى بيت أقام الله صرحه على دعائم التوحيد ، وشاد دعائمه من الاخلاص واليقين ، والصبيان أشد الناس حساسية ، وأطبعهم على التقليد والمحاكاة ؛ واذا كان على قد ارتضع الشجاعة ، وكرم النحيزة ، ومخايل النبل الوراثى عن أبويه فى سنيه الاولى ، فانه درج أيام شبابه وفتوته فى مدارج الوحى ، ومهبط التشريع حيث اتاح الله له أفاويق النبوة ينهل منها ماشاء له استعداده من خير وبر . وايمان ويقين ، وعلم وحكمة فى ظل أصفى الخليقة سريرة ، وأنقاهم علانية ، أخيه وابن عمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلقى من رعايته وحبه وعطفه مالم يلقه وليد فى كنف أعطف والد ، يصف ذلك على فيقول : (يضمنى الى صدره ، ويكنفنى الى فراشه ، ويمسنى جسده ، ويشمنى عرفه ، وكان يمضغ الشىء ثم يلقمنيه) : فكان موضع سره وملجأ أمره ، وعيبة علمه ، وموئل حكمه

إسلامه : نهد على مسلما ، وترعرع على الايمان ، وشب طاهر العقيدة ، لم يعبد من دون الله شيئا منذ نيطت عليه التمائم ، كيف وهو لم يتفتح عقله واحساسه للحياة الا ونور النبوة قد اخذ بمشاعره وهداية الوحى ملأت قلبه . وجلال الاسلام ايقظ روحه . وتعاليم الشريعة

وآدابها كانت له نبراسا يضيء حوالك الظلمات امامه . وتفتح ابواب الحكمة لعقله . روى انه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم بعيد البعثة فوجده هو والسيدة خديجة ام المؤمنين يصليان فقال على : ما هذا يا محمد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا دين الله الذى بعث به رسله فأدعوك الى الله . وأن تكفر باللات والعزى . فقال الفتى على : هذا أمر لم اسمع به قبل اليوم فلست بقاض امرا حتى احدث أباطالب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . يا على ان لم تسلم فاكتم . خشية ان يفشي سره قبل ان يستعلنه . فمكث على ليلته يفكر فى شأنه وشأن هذا الدين الجديد الذى جاء به ابن عمه الصادق الامين ولكن هداية الله كانت ترعاه . فلم يكد يسفر عليه الصبح حتى اسرع الى رسول الله معلنا ايمانه بدعوته وقبوله لرسالته

بعث النبي صلى الله عليه وسلم وعلى لم يجاوز العاشرة من عمره ، وأنت قد عرفت الحالة التى كان عليها العرب فى عهد البعثة ، وعرفت ما كان بين الدعوة الاسلامية والعرب قاطبة وقريش خاصة من نضال سبق اللسان فيه السيف ، حتى أذن الله لنبيه وأصحابه بالهجرة من مكة الى المدينة ، فخرج متخفيا بليل ، ونام على على فراشه وإذا بفتيان قريش إنما يرصدون عليا وهم يظنونه محمدا ، روح من الوفاء والشجاعة ، والجرأة ملأت قلب فتى الفتيان على فأنامته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أخطر المواقف ، وأحرج الأوقات

حياته بالمدينة : ثم لحق على بالمؤمنين فهاجر الى المدينة ، وهنا يبدأ دور الرجولة فى حياته رضى الله عنه لان حياة الاسلام انبعثت فيها

النشاط واليقظة، واتخذت سمتا جديداً يتكىء بعدالحجة على الجهاد بالسيف لحماية الدعوة، والدفاع عن الحوزة، فكان بطل الأبطال علىّ المجلّى فى تلك الحروب والغزوات؛ يجول ويصول عالياهامات صناديد قريش بنصله، كانت أول وقعة انتصر فيها الاسلام وقعة بدر، وقد روى أن نحو نصف قتلى المشركين، وكانوا سبعين رجلا من رؤساء الكفر إنما جندلوا بيده، وسالت نفوسهم على شفرات سيفه، أما غزوة أحد فعلى ما كان فيها من امتحان المسلمين، فان عليا كان فى طليعة الثابتين المناضلين دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انجلى غبارها وفى غزوة الخندق تقدم بطل الأبطال علىّ الى قرم العرب «عمرو بن ود» بعد أن اقتحم الخندق يطلب أبطال المسلمين لمبارزته حتى أفزعهم وقتل عددا منهم، فبرز إليه وصارعه حتى صرعه، وفى ذلك تقول أخت عمرو ترثيه:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله * بكيته أبدا مادمت فى الابد
لكن قاتله من لانظير له * وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وقد فتح الله على يديه حصون خيبر، وفيها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم) والحديث عن مواقف بطولته وشجاعته يحتاج إلى طوال الأسفار، وحسبك أنه لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى «تبوك» فان النبى خلفه على المدينة، وقال له: (أنت منى بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى) وهو كما يصف

نفسه فى قوله : (والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه)

موقفه من الخلافة : أتم الله على المسلمين نعمته ، وأكمل لهم دينهم ، واختار نبيه الى الرفيق الأعلى ، فاجتمع الناس على بيعة أبى بكر رضى الله عنه، وتخلف عليّ وبعض بنى هاشم، لأنهم كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة، وأن علياً أولى بأمامة المسلمين لسابقته فى الاسلام، وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما رأى إجماع الناس على بيعة أبي بكر أرسل اليه أن أقبل الينا، فأقبل أبو بكر حتى دخل عليه بيته وعنده بنو هاشم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أما بعد يا أبا بكر فانه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا . وموعدك غدا فى المسجد الجامع إن شاء الله)

بايع علي أبا بكر فأخلص له النصيحة ووازره أصدق موازرة ، حتى عهد بها إلى عمر بن الخطاب عند دنو أجله، فكان علي لعمر وزير صدق، ومستشارا أمينا ، رضى عن عمر وخلافته، ومدحه وأثنى على أيامه فقال. (لله بلاد فلان (يعنى عمر) فقد قوّم الأود، وداوى العمد، خلف الفتنة، وأقام السنة، ذهب نقى الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه، رحل وتركهم فى طرق متشعبة، لا يهتدى فيها الضال، ولا يستيقن المهتدى) وكان عمر رضى الله عنه يعرف لعلى كرم الله وجهه قدره فى علمه وفضله، وقرابته، وكان يقول: (لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو حسن) ويقول: (لا يفتين أحد بالمسجد وعلى حاضر) ولما دخل عليه فى

طعنته التي مات منها قال له : (يا على أعن ملأ منكم ورضى كان هـذا ؟) فقال على : (ما كان عن ملأ منا ولا رضى ، ولوددنا أن الله زاد من أعمارنا فى عمرك) ولما وضع عمر الأمر فى يد رجال الشورى قالوا له : قل فينا ياأمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ، ونقتدى به ، فذكرهم واحدا واحـدا حتى جاء إلى على فقال : (وما يمنعنى منك ياعلى إلا حرصك عليها ، وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبـين والصراط المستقيم) ثم قال له : (لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وقرابتك وشرفك من رسول الله ، وما آتاك الله من العـلم والفقه والدين فيستخلفونك ، فان وليت هذا الأمر ، فاتق الله ياعلى فيـه ، ولا تحمل أحدا من بنى هاشم على رقاب الناس) انتهت الشورى الى بيعة عثمان بن عفان رضى الله عنه فسلم على إيثاراً لصالح الامة وفرارا من الفرقة ، وفى ذلك يقول : (لقد علمتم أنى أحق بها من غيرى ؛ ووالله لأسلمن ماسلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الى على خاصة التماسا لأجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجة) وحدثت بعد ذلك أحداث أنكر الناس فيها على عثمان شيئا فاجتمعوا إلى على كرم الله وجهه وسألوه مخاطبة عثمان رضى الله عنه واستعتابه لهم فدخل عليه فقال .(ان الناس ورائى وقد استسفرونى بينك وبينهم ووالله ما أدرى ما أقول لك ؟ ما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على شىء لاتعرفه ، إنك لتعلم ما نعـلم ، ما سبقناك الى شىء فنخبرك عنـه ،

ولا تخلونا بشيء فنبلغكه ، وقد رأيت كما رأينا ، وسمعت كما سمعنا ، وصحبت رسول الله كما صحبنا ، وما ابن أبي قحافة ، ولا ابن الخطاب أولى بعمل الحق منك ، وأنت أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشيجة رحم منهما ، وقد نلت من صهره مالم ينالا ، فالله الله فى نفسك ، فأنك والله ماتبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وان الطرق لواضحة ، وان أعلام الدين لقائمة .... وإنى أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فانه كان يقال : يقتل فى هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ، ويثبت الفتن عليها ، فلا يبصرون الحق من الباطل ، يموجون فيها موجا ويمرجون فيها مرجا ، فلا تكونن لمروان سيّقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضى العمر ؟ !) .

بيعته بالخلافة : انتهت فتنة عثمان رضى الله عنه بقتله مظلوما ، فتجمع الناس إلى على كرم الله وجهه وأرادوه على البيعة فأبى وقال لهم : (دعونى والتمسوا غيرى ، فانامستقبلون أمرا له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتمونى فانا كأحدكم ، ولعلى اسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيرا خير لكم منى أميرا) ولكن الناس أبوا عليه إلا قبولها ، وكانت بيعتهم له كما وصفها رضى الله عنه فقال : (وبسطتم يدى فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ، ثم تداككتم على تداك الابل

الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعـل ، وسقطت الرداء ، ووطىء الضعيف ، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياى أن ابتهج بها الصغير ، وهدج اليها الـكبير ، وتحامل نحوها العليـــل ، وحسرت إليها الـكعاب) [1] ولقد كان يعـلم ما كانت تحمله الفتن فى طياتها من العظائم المبيرة ، فتنبأ بها وشمر لهـا على مضض ينفثه فى قوله :

(ذمتى بمـا أقول رهينة ، وأنا به زعيم ، إن من صرّحت له العبر عما بين يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، الا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله ، والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلـكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلـكم وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وشمة ولا كـذبت كـذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام ، وهذا اليوم ، ألا وإن الخطايا خيل شمس حمـل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم فى النار ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة حق وباطل ، ولـكل أهل ، فلئن أمر الباطل لقديما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، ولقلما أدبر شىء فأقبل)

وكان بركانا من الفتن انفجر على الأمة الاسلامية ، على عهد خـلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فهذا معاوية وأهل الشام يشقون عصا الطاعة ، ويزعمون أنهم يطلبون دم عثمان ، وهـذه أم المؤمنـين عائشة

انظر ص ٦٧ ج ١ شرح النهج لابن أبى الحديد

رضى الله عنها تزور وعن يمينها الزبير بن العوام، وعن يسارها طلحة بن عبيد الله، وبين أيديهم جميعاً من شباب المهاجرين والانصار كثرة لا يحصيها العد، خرجوا يؤلبون الناس لحرب علي واصحابه وهؤلاء أهل العراق جند أمير المؤمنين وخاصته لا مرماً تخاذلوا عن الجهاد، طوائف اعتصمت بالباطل فاجتمعت عليه، وطائفة انتثرت حول الحق مذعورة خائرة ضاق بها أميرها ذرعا ورماهم بقارس القول وقاصمة الظهر فلم يتحولوا عن حالهم حتى برم بهم يوما فخطبهم فقال: (أحمد الله علي ماقضى من أمر وقدر من فعل، وعلي ابتلائى بكم أيتها الفرقة التى اذا أمرت لم تطع، واذا دعوت لم تجب، إن أمهلتم خضتم، وإن حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على إمامكم طعنتم، وإن أجبتم الى مشاقة نكصتم، لا أبا لغيركم، ماتنظرون بنصركم ربكم والجهاد على حقكم، الموت أو الذل لكم ! فوالله لئن جاء يومى - وليأتينى - ليفرقن بينى وبينكم وأنا لكم قال وبكم غير كثير، لله أنتم !! أما دين يجمعكم، ولا حمية تشحذكم ؟ أوليس عجيبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء، وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الاسلام، وبقية الناس، الى المعونة وطائفة من العطاء، فتتفرقون عنى وتختلفون علي ؟ إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه، وإن أحب ما أنا لاق إلى الموت، قد دارستكم الكتاب، وفاتحتكم الحجاج، وعرفتكم ما أنكرتم، وسوغتكم مامججتم، لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ ؟ ؟)

ومن وراء ذلك الخوارج - وهم أشد الطوائف مراساً وحباً للموت -

خرجوا يعيثون فى الأرض فسادا ، ويحاجون ويحتجون ، فكأنما الدنيا بأهلها وزخرفها ومطامعها فى كفة ، وأمير المؤمنين فى صراحته وزهادته وتقواه وخاصة أهله وأصحابه فى كفة . حق مسلوب ، وباطل منصور ، ويأس قاتم وجند متخاذلون ، وعدو متكاثر ، وحروب يشيب لهولها الوليد ، تلك هى حالة خلافة على كرم الله وجهه - انتهت بقتله غيلة سنة ٤٠ هـ على يد الأثيم عبد الرحمن بن ملجم الذى يقول فيه عمران بن حطان الخارجى :

ياضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذوى العرش رضوانا
إنى لأذكره حينا فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

كذب والذى نفس علىّ بيده ولكن صدق الذى قلب عليه المعنى إذ يقول :

ياضربة من شقى ما أراد بها الا ليهدم من ذى العرش بنيانا
انى لأذكره يوما فألعنه إيهاً وألعن عمران بن حطانا

بلاغته : فتى من دوحة قريش أفصح العرب ، وفلذة هاشمية ، وتربية نبوية ، ونشأة اسلامية ، وشباب حرب وجلاد ، ونضال وجهاد ، لحماية الدعوة وتبليغ الرساله ، ورجولة أحداث عواصف ، وعواظم قواصف ، وكهولة إمارة محسودة ، وخلافة بالكيد مقصودة ، وأعداء متضافرون على باطلهم ، وأنصار كحميل السيل كثرة جوفاء متخاذلون على حقهم ، وفتن تمسى وتصبح كقطع الليل تذر الحليم سفيها والعقول حيرى . تلك هى مقومات البلاغة العلويه التى تفرد بها أمير المؤمنين ، فكانت

نفحة من العلم الالهى ، وعبقة من البيان النبوى . وأعجازا لقادة الأدب العربى . من القرآن الكريم منبعها ، ومن الفصاحة المحمدية مترعها ، زويت لغة العرب فى نصاعة ألفاظها ، وجزالة اسلوبها ، وتجمعت له الافكار على تباين مراميها اجتماع الغيث يترى ففاضت على لسانه علما وحكمة وزجرا ووعيدا ، ووعدا وترغيبا . ونصحا وتزهيدا . حتى كان فى ذلك كله « مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه .. ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ . ومع ذلك فقد سبق وقصروا وتقدم وتأخروا »(١)

هذا دأبه — كرم الله وجهه — فى الخطابة والكتابة ، فخطبه فى تحريض أصحابه على الجهاد ، ومناظرته للخوارج ، ومحاجته لمعاوية وأنصاره ، وعائشة أم المؤمنين وحزبها ، ومقاماته فى وصف جلال الله والترغيب فى ثوابه والترهيب من عقابه ، وكلامه فى وصف الدنيا والتزهيد فى زخرفها ، وكتبه لولاته وأمراء جيوشه ، كلها آيات فى البلاغة العربية ليس بعدها لبليغ غاية ، ولا لادراكها لمجد سبيل ، فذلك منهل لا يورد ومشرع لا يقصد .

كانت بيئته الخاصة والعامة ، واستعداده الفطرى وطول رفقته لنبى هذه الامة مدرسة تخريجه فى الخطابة والكتابة من فنون الأدب ، أما الشعر فلم يكن مما يشغله ، ولا عرف عن طريق صحيح أنه نظمه ، فقد كان له من جلائل الحوادث وحقائق الامور مايصرفه عن السبح فى الخيال

(١) الشريف الرضى

هذه صورة خاطفة عن حياة الإمام الصالح علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورحمه وأدخله فسيح جناته .

الشعرى ، وان كان بعض الناس يروى له شعرا وينسبه إليه ، ولكنا نرجح عدم صحة عزو هذا الشعر إليه ، ونرى أنه منتحل مكذوب لسببين (١) أن الثقاة من الرواة لايثبتون ذلك ولا يروونه (٢) ان ذلك الشعر المنسوب اليه فى أغلبه ضعيف ركيك لا يتفق مطلقا وما عرف عن مقامه من البلاغة والبيان ، وهذا لايمنع أنه كان يتمثل ببعض الابيات من شعر السابقين فيصيب بها سواء المفصل ، وقد يكون ذلك سببا فى نسبة بعضها إليه ، ولايمنع أيضا أن يكون لسانه نفث بيتا أو بيتين عن عفو الخاطر كالذى يحدثنا به أبو العباس المبرد حيث يقول : (ومن شعر على بن أبي طالب الذى لا اختلاف فيه أنه قاله ، وأنه كان يردده ... قوله :

يا شاهد الله علىّ فاشهد أنى على دين النبى أحمد

من شك فى الله فانى مهتد

وهو نظم كما ترى أشبه بالنثر منه بالشعر .

وقد جمع السيد الشريف الرضى خطب جده أمير المؤمنين وكلامه وكتبه فى كتاب (نهج البلاغة) وعنى الناس بشرحه ، وكان ممن شرحه شرحا أدبيا مختصرا الاستاذ الامام محمد عبده ، وطعن بعض الناس فى نسبة بعض مادون فى هذا الكتاب الى على كرم الله وجهه ، وزعم أنه منحول . ونحن نقف من هذا الطعن موقف الريبة ، إذ لا دليل عليه من التاريخ ولا من الادب ، وأقصى مانظنه أنه يمكن أن يكون قد زيدت بعض